# مظاهر العبقرية
## في الحضارة الاسلامية

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— ٣ —

ولما أظهر الله الإسلام تنفست هذه الفئات المضطهدة الصعداء، وأخذت تسير بسيره، وتترسم خطاه، وإذ آنست فيه إلى ظل نظام عادل، فقد أخذت تؤسس في كل حاضرة من حواضر الإسلام مدارس للعلم ومجالس للعلماء، وأهم هذه المدارس على الإطلاق هي مدرسة الأسكندرية الشهورة.

وباتساع رقعة الإسلام أخذ الخلفاء يستعينون بهؤلاء العلماء على تنظيم شئون امبراطوريتهم السياسية، ولما ترادفت عليهم — أي الخلفاء — الفتوح، ودانت لهم الأقطار أخذوا يتطلعون إلى موارد العلم والمدنية والثقافة، ولم يفتهم قط أن يستعينوا بعلم هذه الطبقات الراقية التي خضعت لسلطانهم، ودخلت في حوزتهم، وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نجمل العوامل الرئيسية التي عملت في تنشئة الفكر العربي وإعداده إعداداً علمياً صحيحاً لتلقي الحضارة في خمسة عوامل هامة وهي[1]:

أولا — النساطرة، وقد استعان هؤلاء على نشر أفكارهم في بلاد العرب بتعاليم منتزعة من الفلسفة اليونانية حتى لقد كان كل نسطوري يحكم الضرورة معلماً في الفلسفة اليونانية، وهم إلى جانب ذلك أول مدرسة تهذب فيها الفكر العربي باحتكاكه بالثقافة اليونانية، وأول من خدم الطب في العصور الأولى.

ثانياً — اليعاقبة، وإليهم يرجع الفضل الأول في إدخال الأفلاطونية الجديدة، ومذهب الباطنية في جو الثقافة العربية.

ثالثاً — الزرادشتيون في بلاد فارس، وأهم مدارسهم هي مدرسة جنديسابور التي أسسها « كسرى أنو شروان » وكانت تضم طائفة من العلماء الذين شردهم الإمبراطور « يوستيانوس » حين أمر بإغلاق جميع المدارس والهياكل في أثينا. وكانت تدرس في هذه المدرسة الكتب اليونانية والسريانية والفلسفة الهندية وآدابها وعلومها، وفي هذه المدرسة أيضاً ازدهر الطب وذلك إذ تخلص من ضغط الكنيسة، وتحرر من قيود العلوم اللاهوتية. واشتهر في هذه المدرسة قبل الإسلام الحارث بن كلدة الطبيب المشهور، وابنه النضر، وقد ذكره ابن سينا مع الذين هزموا يوم بدر، ثم أسرو قتله علي بن أبي طالب صبراً.[1]

رابعاً — مدرسة حران الوثنية، ولسنا نعرف مؤسس هذه المدرسة ولا كيفية نشأتها، والذي وصلنا إلينا عن حران هو أنها كانت مثابة لتعاليم الديانة اليونانية القديمة بعد أن طغت عليها المسيحية في العالم اليوناني. والراجح أن حران قد ورثت كثيراً من تعاليم الديانة البابلية القديمة، وأن هذه المدرسة أيضاً قد كانت متأثرة إلى حد بعيد بتعاليم الأفلاطونية الجديدة كما وصفها « فرفوريوس الصوري ».

خامساً — العبرانيون، وأهم مدارسهم في صور، وبابادينا وكانت عاكفة على درس شرائعهم التقليدية، ولئن ورث العبرانيون عن النساطرة نزعة إلى علم الطب إلا أنهم لم يتفقوا عليهم قط، وقد ذكر « لكلارك » في كتابه تاريخ الطب عند العرب في القرن العاشر ٢٩ طبيباً مسيحياً، على حين لم يذكر سوى ثلاثة من أطباء اليهود وأربعة من وثنيي حران.

وإلى جانب هذه العوامل الرئيسية التي استمد منها الفكر العربي أسلوب دارسة الحضارتين القديمتين، اليونانية والرومانية، فقد كانت هناك مراكز هامة أخرى للثقافة اليونانية فقد ذكر « دييل » أنه كان في كل من أنطاكية، والرها، ونصيبين — وذكر أيضاً حران — إبان الفتح الإسلامي مدارس راقية أحسن أساتذتها فهم الثقافة الإغريقية، وفلسفة أرسطو، والعلوم والطب المعروفة عند القدماء. وقال أيضاً: « إن خلفاء بني أمية كانوا يرجعون إلى هؤلاء الأساتذة ليستعينوا بهم على نقل أهم كتب اليونان والبيزنطيين العلمية والأدبية إلى السريانية والعربية[2].

**العرب والترجمة:**

بعد أن تثقف العرب على يد هؤلاء الأساتذة وجهوا همهم

(١) تاريخ الفكر العربي لاسماعيل مظهر.

(١) زهر الآداب ص ٢٧ ج ١ — لأبي إسحق الحصري القيرواني

(٢) Dieht yzuvee

إلى دراسة الحضارتين : اليونانية والرومانية دراسة مستقلة ، واستخراج أهم روائعهما التي قد تفيدهم في بناء حضارتهم . فعكفوا على دراسة المؤلفات القديمة ، واجتهدوا في تفهمها وشرحها ثم علقوا عليها ذيولا ضافية ، ظهر فيها طابع العبقرية الاسلامية ، وعدلوا فيها ونقدوها ، وزادوا من عندهم أشياء جديدة ، وكان لهم نظر صائب في إمازة الغث من السمين ، والوضع من الأصل . ومن الذين اشتهروا في ميدان الترجمة كان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان[1] المعروف بحكيم آل مروان ، فقد ترجم كثيراً من كتب الفلاسفة ، ولا سيما كتب علوم الطب والنجوم والكيمياء والآلات ، والصناعات من اللسان اليوناني والقبطي والسرياني « وكانت الترجمة أحيانا من اليونانية إلى العبرانية ، ومن العبرانية إلى السريانية » ويقال إن خالداً هذا كان أول من أنشأ دار كتب في الإسلام ، وقد أنشأها في دمشق[2] .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز ، ترجم كتاب الطب الذي ألفه أهرن بن أعين ، إلى اللغة العربية بأمر هذا الخليفة الصالح[3] .

ويقسم بعضهم تاريخ الترجمة عند العرب إلى قسمين : أما الأول فيبتدىء من ١٣٢ هـ — ١٩٨ هـ أي منذ بداية خلافة السفاح إلى خاتمة عصر الأمين ، وفي هذا العصر ظهرت العبقرية العربية واضحة جلية . لا سيما في الكتب التي ترجمها عبد الله ابن المقفع إلى العربية .

**العصر المأموني :**

أما القسم الثاني من تاريخ الترجمة عند العرب فيبتدىء بتسنم المأمون ذروة الخلافة ويعرف بالعصر المأموني، ويضاهي هذا العصر في تاريخ الحضارة العربية ، بتقدم العلوم فيه وازدهارها ، عصر بركليس في أثينا . وأهم ما يمتاز به هو إنشاء بيت الحكمة التي أقامها الخليفة المأمون في بغداد ، فجمعت في خزائنها أشهر الكتب العلمية القديمة ، وضمت بين جدرانها كبار المشتغلين بالعلوم والفلسفة والنقل . وكان يتولى الهيمنة على إدارة دار الكتب هذه الوزير المعروف ، سهل بن هارون ، وجاء في بعض الروايات[1] أن يحيى بن أبي منصور الموصلي المنجم المعروف ، ومحمد بن موسى الخوارزمي صاحب الأزياج المشهورة والمصور الأرضي البديع الصنع ، كانا من خزنة بيت الحكمة المأموني . وكان علان الشعوبي ، والفضل بن نوبخت ، وأولاد شاكر من الذين يترددون على هذه الدار إما للمطالعة ، أو للنسخ والترجمة والتأليف .

وفي هذا الدور أيضاً بعث المأمون إلى حاكم صقلية المسيحي يأمره بأن يرسل إليه جميع الكتب العلمية والفلسفية الموجودة في مكتبة صقلية الشهيرة ، فتردد هذا في إرسالها ، وضنّ بها كل الضنّ ، ولما ألحّ عليه الخليفة في الطلب جمع كبار رجالات الدولة واستشارهم في الأمر ، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله « إرسلها إليه فوالله ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أفسدتها » فعمل الحاكم بمشورته ، وهي إن دلت على شيء فلا تدل إلا على مقدار كراهية رجال الاكليروس للعلم ، ونفورهم من ظل العلماء .

وفي هذا الدور أيضاً جمع المأمون بعض حكماء عصره ، على صنعة الصورة التي نسبت إليه ودعيت بالصورة المأمونية[2] صوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره ، وعامره وغامره ، ومساكن الأمم والمدن إلى غير ذلك ، وهي أحسن مما تقدمها من جغرافية بطليموس ، وجغرافية مارينوس . وقد وضع له علماء رسم الأرض — وكانوا على ما يرويه الزهري سبعين رجلا من فلاسفة العراق ، كتاباً في الجغرافية أعان عمال الدولة على التعرف إلى البلاد التي أظلتها الراية العباسية ، هذا إلى عنايته بالفلك ، وفلكيه الفزاري أول من استعمل الاسطرلاب من العرب ، وعني بالطبيعة والرياضيات فوق عنايته بالطب ومعرفة العقاقير والنبات والحيوان ، وفتح المأمون باب العقل والتفكير الحر على مصراعيه في جميع البحوث .

وفي عصر المأمون أيضاً تأسست أول مدرسة للترجمة في العالم العربي ، وكانت تتألف من حنين بن إسحق ، وابنه إسحق بن حنين ، وابن أخته حبيش الأعسم الدمشقي وغيرهم . وقد أسس

(١) خطط الشام ج ٤ ص ٢٠ لمحمد كرد علي .
(٢) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٦٤ .
(٣) تاريخ دمشق : لابن عساكر .

(١) عصر المأمون ج ١ ص ٣٣٥ للدكتور أحمد فريد الرفاعي .
(٢) خطط الشام والاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٢١٣ لمحمد كرد علي وعصر المأمون ج ١ ص ٣٢٦ .

المأمون هذه المدرسة فى بغداد ؛ فقامت خير قيام بنقل جميع المتون اليونانية المشهورة إلى اللسان العربى ، وكانت هذه المدرسة أيضاً تشرف على إصلاح جميع ماينقله الغير إلى اللسان العربى[١] .

ومن الكتب التى ترجمها وعلق عليها حنين بن إسحق بأمر الخليفة المأمون : كتاب الإيساغوجى لفرفوريوس وارسطوطيقا لأرسطاطاليس ، وجزءاً من الأنالوطيقا وجزءاً من الميتافيزيقا ؛ وتلخيصات نقولاوس الدمشقى وتعليقات الاسكندر الأفروديسى والجزء الأعظم من مؤلفات جالينوس ، وديوشقورس وبولس الأجانيطى ، وأبقراط .

ويروى أن المأمون كان يعطيه من الذهب[٢] زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلا بمثل . وقال أبو سليمان المنطقى إن بنى شاكر ، وهم محمد وأحمد والحسن كانوا يرزقون جماعة من النقلة : منهم حنين بن إسحق ، وثابت بن أبى قرة وغيرهم فى الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل واللازمة .

وكان يتمتع حنين بن إسحق بمكانة[٣] سامية عند خلفاء بنى العباس ، إذ أحلوه منزلة سامية من الاجلال والاحترام ، وكان أبوه صيدلياً فى جند يسابور[٤] ، وثقفه فى بغداد جبرائيل ابن بختيشوع واشتهر فى زمن المأمون وعاش إلى زمان المتوكل .

وقد ترجم ابنه إسحق بن حنين مقالة أرسطوطاليس فى الروح ( De Anima ) ، وقد علق عليها فيما بعد الافروديسى ، وتعد هذه الترجمة النادرة اليوم من أهم المراجع لدرس الفلسفة فى عصرنا الحاضر ، ويعلل الأديب الأستاذ إسماعيل مظهر هذه الظاهرة باتجاه الفكر فى الأزمنة الحديثة إلى درس البسيكولوجيا وابتعاده عن درس المنطق .

يقول القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى : « ... ثم لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد تمم ما بدأ به جدُّه المنصور ، فأقبل على طلب العلم فى مواضعه ، وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس ، وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة فاستجاد لها مهرة التراجمة ، وكلفهم إحكام ترجمتها . فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حضَّ الناس على قراءتها ، ورغبهم فى تعليمها ، وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده ؛ وأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يرغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس فى دقة الصناعة العملية والتباهى بأخلاق النفس ، والتفاخر بالقوى إذ علموا أن البهائم تشركهم فيها ، وتفضلهم فى كثير منها ، فلهذا السبب كان أهل العلم فى كل زمان هم مصابيح الدجى ، وسادة البشر ، وأوحشت الدنيا لفقدهم » .

وقد بلغ من اهتمام المأمون بالعلوم وحثه على طلبها أن أصبح يضرب به المثل فى عظم الحركة العلمية ، حتى لقد مثله « تولدكه » بأنوشروان وغيره من رسل الثقافة العامة .

يقول الدكتور طوطح فى رسالته الانجليزية عن حالة التعليم عند العرب : « إنه بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكباً على مطالعة رسائله مع أترابه فى مدرسة القصر كان المأمون يعالج الفلسفة ومناقشة اقضيتها هناك فى بغداد » . وقال إن المأمون أوفد عميد بيت الحكمة إلى بلاد اليونان لنقل حكمة اليونان وعلوم اليونان إلى اللغة العربية[١] .

على أنه ليس فى وسعنا أن نصور عصر المأمون الذهبى فى مثل هذه الكلمة العجلى ، وحسبنا أن نختم الكلام فيه بعبارة السير وليام موير[٢] الموجزة البليغة إذ يقول : لقد كان المأمون عاملا من عوامل النهضة العلمية ، على حين كان الملوك المعاصرون له فى أوربا فى الدرك الأسفل من الجهالة ، ولقد كان عصره يحاكى عصر بركليس فى أثينا من جميع الوجوه .

### الجامعات العربية :

وقد أنشأ العرب فى فتوحهم عدة جامعات كبرى ، وكانت جامعاتهم فى البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة وبلرم وسالرنو وأشبيلية تغص بالعلماء والمتعلمين الذين كانوا يقصدونها من أقصى أطراف العالم الغربى الأوروبى ، وفى عهد الخليفتين : عبد الرحمن الثالث والحكم بن عبد الرحمن ، بلغت مدارس قرطبة وحدها سبعاً وعشرين مدرسة[٣] ، وكان فيها إلى جانب هذه

(١) تاريخ الفكر العربى ص ٢٣
(٢) عصر المأمون ج ١
(٣) تاريخ الفكر العربى
(٤) أخبار الحكماء ص ٢٤٨

(١) عصر المأمون ج ١ ص ٢٩٤
(٢) Coliphates, by Sir. W. Muir
(٣) Outlol of history, H . G . Wells :

المدارس أيضاً مكتبة حافلة يقال إنها حوت خمسمائة ألف مجلد .

يقول دوزى[1] لم يكن فى كل الأندلس أميٌّ واحد يوم لم يكن فى أوروبا من يلم بالقراءة والكتابة إلا الطبقة العليا من القسوس ، وكان العلماء والأدباء والفلاسفة فيها يختلفون إلى مختلف المجامع — كالمجامع العلمية اليوم — للتفاهم والمناظرة .

وقد كان طلبة العلم من مسيحيي أوربا يفدون أفواجاً على جامعة قرطبة لتلقى العلم فيها ، وعن طريق هذه الجامعة الشهيرة انتقلت الفلسفة العربية إلى مختلف أقطار أوربا وظهر أثرها واضحاً بليغاً فى جامعات باريس واكسفورد ، وإيطاليا الشمالية وسائر أقطار أوربا الغربية[2] ومن الذين تأثرت الحركة الفكرية فى أوربا ببحوثهم ؛ كان أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد مولود قرطبة ؛ فقد ألف هذا العبقرى الفذ فى الفلسفة الطبيعية وفى المادة والقوة ، وقدم العالم ، والطب والرياضات والفلك ؛ وعدل تعاليم الفيلسوف أرسطاطاليس الفلسفية وفصل بها بين اللاهوت والعلم فحسبه قومه كافراً ونبذه بعضهم ولكن « لاوى بن جرسون » ترجم كتاباته إلى اللاتينية وشاركه فى ذلك ابن تربون فوصلت كتابات ابن رشد الفيلسوف العربى إلى العالم اللاتينى سنة ١٢٥٠ فاستند إليها الطبيعيون ، والعلماء ، والفلاسفة ، والاشتراكيون واعتمدها دانس سكوتس كما اعتمد أرسطو ؛ وحتى قال بعض علماء الغرب . إنما ابن رشد كان خميرة أوربا ، وقد رسخت قدمه فى جامعات شمالى إيطاليا ثلاثمائة عام ، ومن أتباعه بطرس أبو تسيس وجون جندن وأوربانس فى بولونيا ، وبولس فى فينيسيا سنة ١٤٢٨ م ، وكاجاتانوس النيسى حتى أن الفيلسوفة السيدة كسندرا فيدال دافعت عن ابن رشد[3] ، وقد تسربت فلسفته أيضاً إلى جامعتى بولونيا وبدوى[4] .

ومن مشهورى العرب والإسلام الذين نبغوا فى هذه المدارس أيضاً نذكر الطبيب ابن سيناء ، والفيلسوف الفارابى ، وابن باجه ، وسنعود لدراستهم فى غير هذا الصدد وفى غير هذا المكان .

( يتبع ) خليل جمعة الطوال

(١) Dozy ; Hist.des Mus . d Espauge

(٢) تاريخ المسلمين فى أسبانيا : لدوزى و . مختصر التاريخ ولز .

(٣) ا ـ المستشرقون . ب ـ بحث لجيلر .

(٤) فلسفة ابن رشد و . دائرة المعارف البريطانية

# بعد الوداع . . . !

للأستاذ محمد عبد الرحيم إدريس

بعد ذاكَ الوداع سرتُ وحيداً ... أذرعُ الأرضَ مستهاماً شريدا

يا لبؤس الوَداع يُطلقُ فى القلـ ... ـب اضطراباً وفى الخطى تقييدا

يالتلك الكأس المريرة أحسُو ... ها برغمى وأنثنى عربيدا !

يا لسخر الأقدار عند وداعى ... تسأل القلب أن يمضى وحيدا ؟!

وتعـدُّ الدِّيارَ لى وكأنى ... سألاقى بها حبيباً جديداً

كلُّ دار تزور عنى وتنأى ... أىُّ دار تضمُّ هذا الطَّريدا ؟

كلُّ دارٍ ما لم تكن أنت فيها ... ظلَّ يسقم الفؤاد العميدا

كل دار تَضيَّقتْنى وحيدا ... أطعمتْنى الأشجان والتنهيدا

* * *

يا رياح الشتاء هـذا شراعى ... قد رمى على يديك شهيدا

أبعديه عن كلِّ شطِّ عزاءٍ ... واقذفيه باليأس جهْماً عنيدا

أسلميهِ إلى العباب المدوِّى ... واطرَحيه عن الحياة بعيدا

أمطريه أسًى وظلمة ليلٍ ... وهَبيه صواعقاً ورعُودا

أو دعيه يمضى إلى الهمِّ طوْعاً ... إنه عن صخوره لن يحيدا

واحلى للفناء قلـبى وسُبِّى ... فوق هذا الصِّبا الوريف الوعيدا

وابعدى عن فمى كُؤُوس دموعى ... فلقـد أرتوى وأمضى سعيدا !

* * *

بعد هذا النَّوى دفنتُ بنفسى ... أملاً كنتُ أشتهى أن أردا

كنتُ أرجو أن لا أفارق على الدهـ ... ـر بغير الرَّدى عبوساً مريدا

كنتُ أرجو حتى غلاَّب المنيَّا ... تبذكرى تُضئ علينا الخلودا

غير أنى أرى سراب الأمانى ... ثمناً للفراقِ كان زهيدا !

( الأسكندرية ) محمد عبد الرحيم إدريس